التبعة الأدبيـــة

للدكتور حسن صادق

سنبين فى هذه الكلمة تبعة الشعراء والكتاب التى يحملونها أمام التاريخ وتثقل على أسمائهم وشهرتهم عند مؤرخى الأدب وتطوره ، اذا أنتجت أعمالهم الأدبية حالة من الاضطراب العقلى والقلق النفسى بين شباب الأجيال المتعاقبة

وقد يقول قائل إن من ينسب الى مصنفى الكتب مثل هذه التبعة الخطيرة ، إنما يجعل للأدب قيمة أكبر وأعظم من قيمة الدور الحقيقى الذى يقوم به فى حياة الأفراد والشعوب . ولكننا نجيب على هذا الاعتراض بأن الطريقة الوحيدة التى نملكها لحفظ كنز الانسانية الأدبى ونقله من جيل إلى جيل ، من فجر العصور التاريخية إلى اليوم ، هى الكتب ؛ وكل ما نعرفه عن العصور الماضية البعيدة لم نصل إليه إلا بفضل أعمال الكتاب . وفضلا عن ذلك فان الدراسة المضنية التى يقوم بها الأساتذة أثناء الأعوام الطوال فى معاهد العلم المختلفة ، ليست إلا شرحاً وتفسيراً لأعمال مكتوبة

وينتج عن ذلك أن الحضارة والأدب أمران متعاونان لا ينفصلان ، وأن أحدهما بغير الآخر لن يكون إلا التكرار المستمر لوقائع ومذاهب ونظريات بعينها ، بدون أية مقارنة ممكنة بين الماضى والحاضر . وما دام هذا هو اعتبار مهمة الكتابة فان من السهل تصور التبعة الهائلة الملقاة على عاتق الذين يدونون أفكارهم وينشرونها بين الناس

إن الروح السائد بيننا الآن ، قد كونه الشعراء والكتاب والمؤرخون والفلاسفة الذين يتحدثون إلينا بوساطة كتبهم منذ آلاف السنين ؛ وسيتأثر من غير شك روح الأجيال القادمة بما نكتب اليوم أو ببعضه على الأقل . ومن أجل ذلك يشعر الانسان بشىء من الانفعال المستبهم كلما نشر كتاب جديد ، لأنه يجهل مبلغ الخير أو الشر الذى ينتجه الكتاب خلال سير الانسانية .

وليست أنواع الكتب جميعاً متساوية فيما تنتج من الأثر ، ولكن أعظمها سلطاناً على النفس وأشدها خطراً وأقواها بأساً هى الكتب التى مصدرها الخيال ، أو ما يصح أن يطلق عليها اسم الكتب الشعرية

وفى الحق أن الكتب الغزيرة المادة التى تدل على التبحر وتتطلب الجدال والمناقشة ، أو التى تثبت آراء وأفكاراً أو تفندها وتهدمها ، سواء أكان موضوعها التاريخ أم الفلسفة أم الدين ، تجد أمامها كتباً أخرى كتبت فى الموضوعات نفسها للقضاء على الأثر الذى أنتجه النوع الأول من الكتب ؛ وبهذه الطريقة نجد تصحيحاً لشر هذه ، فى الخير الذى تنشره تلك . وجمهرة الناس الذين لهم حق الخيار فى الأخذ بما يرون لهم من الآراء ، يستطيعون الوصول إلى الحقيقة بفضل جهودهم العقلية الخاصة . وبهذه المناسبة أذكر كلمة حكيمة للكاتب الفرنسى أناتول فرانس ، فقد دخلت عليه فى صباح أحد الأيام سيدة ، فراعها كثرة ما رأت عنده من الكتب والمجلدات ، وقالت له فى دهشة شديدة : أقرأت ياسيدى الأستاذ هذه الكتب جميعا ؟ فقال نعم ، ومن أجل هذا لا أعرف شيئا . فازداد عجبها من هذا الجواب الغريب وسألته الأفصاح فقال : كل كتاب من هذه الكتب ينقض الآخر ويهدمه . ولهذا السبب لا يخرج القارىء منها جميعاً إلا بفائدة واحدة ، هى أن يتعلم كيف يفكر !

ولنفرض - كما هو الواقع - أن مؤرخا نشر كتابا لحته الهوى وسداه الحقد على شعب أو ملك أو زعيم ما ، فى هذه الحال يكتب مؤرخ آخر فى الموضوع نفسه كتابا يدافع به عن الشعب أو الملك أو الزعيم الذى حمل عليه المؤرخ الأول ، ثم يقوم مؤرخ ثالث بجمع الوثائق والأدلة الصحيحة ويثبت الوقائع والآراء فى دقة تاريخية ، وهكذا . فإذا كان المؤرخ الأول قد قصد إلى الشر ، فان نجاحه لا يكون إلا فى حدود ضعيفة وقتية لا تلبث أن تزول . وكذلك الحال فى ميدان الفلسفة ، فأذا دعاك حكيم إلى الركود وعدم الاكتراث مثلا ، أظهر لك حكيم آخر بالمنطق ضرورة الارادة والعزم والحركة

فهما تكن قوة أصحاب المذاهب والمفكرين ، فليس لهم علينا إلا سلطان نسبي ، لأننا نظل سادة أنفسنا فى قبول مبادئهم ومذاهبهم أو رفضها ، ونجد فى كتابات أخرى السلاح الذى ندفع به عن أنفسنا هجمات هؤلاء

أما حالنا مع الشاعر فعلى النقيض من ذلك ، لانه السيد المطلق فى الميدان الذى اختاره لنفسه . والشاعر هنا هو الذى يخلق من عبقريته الخاصة عالماً من الحوادث والانفعالات والصور ينفث فيه كل حيوية الأشياء الحقيقيه ، وإذن فالشاعر هو الروائي أو المؤلف التمثيلى ، أو الموسيقار ، أو مبتكر الحكايات الخرافية أو مصنف الملاحم أو مبتدع الكلام الموزون المقفى

وبفضل هذه الموهبة ، موهبة خلق عالم مستقل . يكون الشاعر فخما عظيما أو خطراً مخيفاً . إنه لا يبحث ولا يناقش ولا يبرهن ، ولكنه يبتدع ويخترع . فهو لا يقنعنا ، ولكنه يستهوينا ويفتننا كما تفتننا المناظر الطبيعية الجميلة واصطفاق الأشجار فى سكون الغابة وخرير الماء فى الغدير ، أى أن الشاعر يغزونا دون أن نستطيع الدفاع عن أنفسنا وصد غارته عنا . وهو بعبقريته يجعلنا عاجزين عن أن نحذر سلطانه ، ويفرض علينا أريج أزهاره وظلال غاباته والتحليق فى أفقه ، فنحن فى الواقع سجناء سحره . وأين نجد ملجأ للخلاص من الصور والأخيلة التى يطبعها فينا ؟ أنلجأ إلى شاعر آخر ؟ كلا لأن هذا يكون تعباً ضائعاً لا طائل تحته . فكل شاعر منهم له ميدان حر مستقل خالص ، وليس من المعقول أن يفند الانسان ملحمة بأخرى ولا درامة بأخرى ولا نشيداً بأغنية . ومن هنا نرى الخير أو الشر الذى يستطيع الشاعر عمله . فهو يستطيع أن يغرس فينا بذور البطولة أو جراثيم الجبن ؛ وفى وسعه أن يقودنا إلى الخير أو يدفعنا إلى الشر على الرغم منا

والشاعر الكبير الجدير بهذا اللقب هو الذى يشعر بالرحمة العميقة ، ويحتقر المتاع المادى ، ويستعذب الآلام فى سبيل المجد المستقبل ، ويلهمنا حب الحياة ويحثنا على إعزاز الارادة وقهر الهوى ، ويدفعنا إلى ضروب التضحية المجيدة ، أى يدفعنا إلى البطولة مهما اختلفت البلاد والجنس والدين والفلسفة . وهذه صفات مشتركة بين الشاعر والبطل

وكلامنا هنا عن الشاعر العبقرى ؛ أما الشاعر الذى يعوزه الابتكار والأسلوب والعبقرية فلا قيمة له ولا أثر يخشى منه . ومثل هذا ربما يحصل على نجاح وقتى ، ولكن شهرته لا تطول ونفوذه لا يمتد ولا يثمر

والشاعر العبقرى نوعان : الأول هو الذى أوتى المقدرة على استهواء الناس بخصوبة ذهنه ورقة خياله وقوة ألفاظه وإحكام نسجه ، ثم يستسلم فيما يكتب لضعف الهوى ويتغنى بالحياة السهلة الرخوة ويندفع فى الملذات الحقيرة المبتذلة ويؤثر بهذا فيمن يسحرهم ويدعوهم إلى الضعف والجبن والأثرة والاشتهاء والشراهة . والثانى هو الذى يحملنا نحو مثل أعلى من القوة والنور والبطولة ولا يورطنا فى اضطراب الذهن ورعشة الأعصاب والحواس

حسن صادق

ظهر الكتاب العجيب :

القصر المسحور

تأليف

طه حسين بك و توفيق الحكيم

وهو يقع فى نحو ٢٢٠ صفحة على ورق فاخر جداً ومزين بصور المؤلفين لأشهر الرسامين وتتولى نشره

أحمد الصاوى محمد

ثمن النسخة ١٥ قرشا مصرياً